

تصريح

١

الخليل بن أحمد :

« اجتمعنا بمكة أدباء كل افق ، فتذاكرنا أمر العلماء ، فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم ويصفونهم ويقدمونهم ، حتى جرى ذكر الخليل ، فلم يبق أحد إلا قال : الخليل اذكى العرب ، وهو مفتاح العلوم ومصرفها » (١) ، « ولم يكن في علماء البصريين من قطع عليه أنه منقطع القرين مثل الخليل بن أحمد » (٢) .

تلك هي المنزلة الرفيعة التي كان يتبوأها أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٠ هـ) (٣) ، وهي مكانة يتفق المتحدثون فيها عنه أنه كان من الذكاء ، والفطنة وسعة العلم ، وسداد النظر — في مرتبة يشار إليها ويعز منالها .

والخليل — رحمه الله — بما عرف به فوق هذا من الخلق الجميل ، والزهد في متاع الدنيا ، والانقطاع إلى العلم والدرس — جديرٌ بمثل هذا التقدير من علماء زمانه ، وبأكثر منه .

(١) أبو محمد التوجي ، مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ٢٩ .

(٢) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ٣٧ .

(٣) الروايات في سنة وفاة الخليل مختلفة ، وهذه إحداها . والخليل بن أحمد مترجم له في المعارف لابن قتيبة ٢٣٦ ، وكتاب الحيوان للجاحظ ١-١٥٠ ، ومقدمة تهذيب الأزهري ٦ ب ، وأخبار النحويين للسيراfi ٣٨ ، ونور القبس ٣٠ أ - ٣٩ ب ، وطبقات الزبيدي ٢٢-٢٥ ، ونزهة الألباء ٤٥ ، والأنساب للسمعاني ٢١-٤١ أ ، وإرشاد الأريب ٤-١٨١ ، ومراتب النحويين ٤٣-٦٤ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١-١٧٧ ، والوفيات ١-٢١٦ ، واللاfi ١٥٨ ، وبغية الوعاة ٢٤٥ ، وشرح المقامات للشريفي ٢-٢٦٨ ، والخلاصة للخزرجي ٩١ ، وتهذيب التهذيب ٣-١٦٣ ، وإنباه الرواة ١-٣٤١ ، وطبقات القراء لابن الجزري ١-٢٧٥ ، تاج العروس ١-١١١ ، ومسالك الأبصار ٦-٢١ ب ، ومراة الجنان لليافعي ١-٣٠٣ ، وشذرات الذهب ١-٢٧٥ ، والمبر للذهبي ١-٢٦٨ .

كتاب العين :

وجلال منزلة الخليل هذا في قلوب الناس ، هو - فيما نقدر - الذي جعل من قدره حق قدره يختلفون وتتباعد آراؤهم في كتاب « العين » ، فقد ورد إلى البصرة على يد وراق من خراسان وصفوه بأنه مجهول الحال غير مشهور فسي العلم ، (٤) وكان ذلك في سنة ٢٤٨ هـ (٥) ، فكان هذا التاريخ أول عهد الناس بكتاب « العين » .

وهو تاريخٌ بعد عن وفاة الخليل بنصف قرن من الزمان أو زاد ، فانقسم العلماء حيال كتاب « العين » إلى فرقتين :

فجمهور منهم استبعد نسبته للخليل ، (٦) لأن المشهورين من تلامذته لم يسمعو - طوال هذه السنين - به ، ولم يعرفوه ، ولم يرووه عن الخليل ، ولم ينقلوا عنه في كتبهم (٧) .

وكان يسندهم فيما ذهبوا إليه ، أن وجد بالكتاب من الخل ما لا تسمح منزلة الخليل العلمية بصدوره عنه . (٨) ثم اختلفوا فيما بينهم بعد ذلك ، فمنهم من أنكر جملة أن يكون كتاب « العين » من عمل الخليل . (٩)

ومنهم من ذهب إلى أن الخليل إنما أسس بناء الكتاب ورسم خطة السير فيه ، وعوجل عن إتمامه ، أما التنفيذ فهو عمل قام به من بعده . (١٠)

ومنهم من رأى أن الجزء الأول من الكتاب من عمل الخليل نفسه ، (١١) وحدد بعضهم هذا الجزء بأنه « حرف العين » من الكتاب (١٢) وحسب .

وطائفة أخرى من العلماء نسبت الكتاب إلى الخليل ، وعلى هذه النسبة كان موقفها منه .

فابن دريد (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) نسبته في أول « الجهرة » للخليل ، ووصفه بالإتقان ، وبأنه أصل لمن جاء بعد الخليل من المؤلفين (١٣) .

(٤) المزه ١-٨٤-٨٥ .

(٥) الفهرست ٦٤ .

(٦) الوفيات ١-٢١٧ .

(٧) الفهرست ٦٤ ، والمزه ١-٨٤-٨٥ .

(٨) الوفيات ١-٢١٧ .

(٩) الوفيات ١-٢١٧ .

(١٠) هذا رأي ثعلب وأبي الطيب اللغوي . مراتب النحويين ٢٠ ، وابن جني في الخصائص (بنقل المزه ١-٧٩) ، وانظر الفهرست ٦٤-٦٥ .

(١١) السيرافي ، طبقات النحويين ٣٨ ، المزه ١-٧٦-٧٧ ، والوفيات ١-٢١٧ .

(١٢) مراتب النحويين ٣١ ، المزه ١-٧٨ ، الفهرست ٦٤ .

(١٣) مقدمة الجهرة ٢-١ .

وأبو الحُسَيْن أحمد بن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ على خلاف) قد نسبته إليه أيضاً (١٤) ووصفه بأنه أعلى الكتب اللغوية وأشرفها ، ثم ذكر سنده إلى الخليل في روايته (١٤) .

والمبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) (١٥) كان يرفع من قدره (١٦) ، ويرويه (١٧) .

وابن درستويه ، أبو محمد عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٣٤٧ هـ) رواه وانتصر له في تأليف مستقل ، رد فيه على أبي طالب الفضل بن سلمة فيما أنكر فيه على الخليل (١٨) .

وهو - كما نرى - اختلاف يتجه إلى تبين صلة كتاب « العين » بالخليل بن أحمد ، أما المادة اللغوية التي تضمنها فقد حظيت من اللغويين بالعناية والتقدير مثل ما تناولها نقدهم واستدراكهم .

وهي - على حالتي النقد والتقدير - أساس ثابت بُني عليه صرح الدرس اللغوي الشامخ فيما بعد .

ومن هنا ارتبطت جمهرة من الدراسات اللغوية المبكرة بكتاب « العين » . فقد عني الدارسون له بالتذليل على مادته اللغوية بما لم يدكره ، وبالانتصار لهذه المادة ، وبنقده وتتبع أخطائه ونقائصه ، كما عني بعضهم باختصاره .

لقد ألف محمد بن عبد الواحد أبو عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب (المتوفى سنة ٢٦١ هـ) (١٩) كتاب « فائت العين » ، (٢٠) ومحمد بن عبد الله الكرمانى (المتوفى سنة ٣٢٩ هـ) (٢١) كتاب « ما أغفله الخليل في كتاب « العين » ، وما ذكر أنه مهمل وهو مستعمل ، وما هو مستعمل وقد أهمل » ، وألف أحمد بن محمد البُشتي الخارَزنجي (المتوفى سنة ٣٤٨ هـ) (٢٢) كتاب « التكملة » ، كمل به كتاب « العين » المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، (٢٣) وأبو الأزهر البخاري ألف كتاب

(١٤) مقاييس اللغة ١-٣-٤ .

(١٥) على خلاف في وفاته ، وهو مترجم له في الوفيات ٢-٤٣٤ ، الانباه ٣-٢٤١ .

(١٦) المزهر ١-٨٩ .

(١٧) تاج العروس ١-١٢ .

(١٨) المزهر ١-٨٩ ، الفهرست ٩٣ ، الوفيات ١-٢١٧ .

(١٩) مترجم له في الارشاد ٧-٢٦-٣٠ ، الفهرست ١١٤ .

(٢٠) ذكر في الفهرست ١١٤ ، الارشاد ٧-٢٩ ، كشف الظنون ١٤٤٣ .

(٢١) الفهرست ١١٨ ، الارشاد ٧-١٩ .

(٢٢) مترجم له في الارشاد ٢-٦٤-٦٦ .

(٢٣) الارشاد ٢-٦٤-٦٦ ، كشف الظنون ١٤٤٣ .

« الحَصَائِل » ، أراد تحصيلَ ما أغفله الخليل . (٢٤)
وللنَّضَر بن شَمِيل النُّحَوي (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) ، (٢٥) وهو من تلامذة الخليل
كتاب « المدخل إلى كتاب العين » .
ونقده أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم الكوفي (المتوفى سنة ٢٥٠ هـ) (٢٦)
في كتابه « الرد على الخليل » ، وإصلاح ما في كتاب العين من الخطأ والمُحْـسَّـال
والتصحيف » (٢٧) ، ومحمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي (٢٨) في كتاب « غلط العين » .
وانتصر له أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه (المتوفى سنة ٣٤٧ هـ) ، (٢٩)
فردّ - في كتاب مستقل له - على نقد المفضل بن سلمة ، ونصر كتاب العين ،
ووصف بأنه مفيدٌ مستوفى (٣٠) .

واختصره محمود بن سالم السنجاني . (٣١)
هكذا حيي كتابُ « العين » في الشرق .
ثم ... انتقل إلى المغرب ، فجذت عناية الدارسين به ، حفظه إبراهيم بن عثمان
ابن الوزان القيرواني (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) (٣٢) ، ودخل إلى الأندلس لأول مرة
على يد ثابت بن عبد العزيز السرقسطي (المتوفى سنة ٣٠٢ هـ) ، وابنه قاسم ، (٣٣)
فتناوله علماء اللغة بالأندلس بالدرس على النهج الذي سار عليه دارسوه بالشرق ،
فسخه القاضي مُنذر بن سعيد البلقوطي (المتوفى سنة ٣٤٩ هـ) (٣٤) بالقيروان (٣٥)
وقابله بمصر بنسخة أبي العباس أحمد بن محمد بن ولّاد النحوي (٣٦) (المتوفى سنة
٣٣٢ هـ) (٣٧) ، ورواها عنه (٣٨) .

-
- (٢٤) الارشاد ٢-٦٥ .
(٢٥) الارشاد ٧-٢١٨-٢٢٢ ، الفهرست ٧٧ ، المعارف ٢٣٦ ، البغية ٤٠٤ ، مراتب النحويين ١٠٧ .
(٢٦) الفهرست ١٠٩-١١٠ ، الارشاد ٧-١٧٠ ، البغية ٣٩٦ .
(٢٧) الفهرست ١٠٩-١١٠ ، المزهر ١-٨٦-٨٧ ، تاج العروس ١-١٢ .
(٢٨) الارشاد ٧-٢٠ .
(٢٩) الفهرست ٩٣ ، الزبيدي ٨٦ ، الوفيات ١-٢١٦-٢١٧ .
(٣٠) الوفيات ١-٢١٧ .
(٣١) دمية القصر ٣٠١ .
(٣٢) طبقات الزبيدي ٢٦٩ ، البغية ١٨٣ .
(٣٣) طبقات الزبيدي ٣٠٩ ، البغية ١٨٣ .
(٣٤) طبقات الزبيدي ٣١٩-٣٢١ ، البغية ٣٩٨ .
(٣٥) المزهر ١-٨٣ ، تاج العروس ١-١٢ .
(٣٦) بغية الملتبس ٤٥١ ، طبقات الزبيدي ٣١٩ ، المزهر ١-٨٣ .
(٣٧) طبقات الزبيدي ٢٣٨-٢٣٩ ، البغية ١٦٩ ، الانباه ١-٩٩ ، حسن المحاضرة ١-٢٢٨-٢٤٧ ، مرآة
الجنان ٢-٣١١-٣١٢ ، الارشاد ٢-٦٣ .
(٣٨) طبقات الزبيدي ٢٤٠ ، ٣١٩ .

الزُّبَيْدِيُّ :

وعُني بكتاب « العَيْن » ، بأمرٍ من الحكمِ المستنصر بالله (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ)
(٣٩) : أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مَدْحِجِ الزُّبَيْدِيِّ ، وهو - فيما تقول
مصادر ترجمته - (٤٠) عَلَمٌ من أعلام الفكر في الأندلس ، وكان يشغل - وخاصة
في علوم اللغة - مكانةً عاليةً وَجَّهَتْ إليه الأنظار ، كان يحفظ متون اللغة ويعرف
معانيها ونواديرها ونحوها وصرفها ، وكان يقال عنه : إنه في المغرب بمنزلة
ابن دُرَيْدٍ في المشرق (٤١) . وهو - إلى هذا - ذو معرفة واسعة بالأخبار والسير
والفقه والحساب ، وكتبه ومناقشاته العلمية واللغوية شاهدةٌ بأنه كان من سعة
الاطلاع ، وصحة التصور ، ودقة النظر ، ونظام الفكر ، بحيث أصبح جديراً
بكل ما حلَّاه به مترجموه .

وُلد بإشبيلية سنة ٣٠٦ هـ ، وبها نشأ ، وقرأ على أبيه ، ثم تخرج بشيوخ
الأندلس مثل قاسم بن أصبغ البَيَّانِي القُرطُبي (المتوفى سنة ٣٤٠ هـ) (٤٢) ،
وسعيد بن فحلون (ويقال : فحل) بن سعيد بن عثمان ، (وكان حياً في سنة
٣٤١ هـ) (٤٣) ، وأحمد بن سعيد بن حزم الصَّدَقِيُّ أبي عَمَرِ المُنتَجِيلي (المتوفى
سنة ٣٥٠ هـ) (٤٤) ، وأشباههم .

وأشير إليه بالإمامة في العلم بين أئداده قبل أن يفد أبو علي القالي (المتوفى
سنة ٣٥٦ هـ) (٤٥) ، على الأندلس ، ولكن أبا بكر الزُّبَيْدِي عَرَفَ فضل القالي

(٣٩) جذوة المقتبس ١٣ ، ابن الفرضي ١٠-١ .
(٤٠) ترجمة الزبيدي في : جذوة المقتبس للحميدي ٤٣-٤٥ ، بغية الملتبس للضببي ٥٦-٥٧ ، تاريخ علماء
الأندلس لابن الفرضي ٣٨٣-١ ، يتيمة الدهر للثعالبي ٢-٦١-٦٢ ، الأنساب للسمعاني ٢٨١-أ ، الوفيات
لابن خلكان ١-٦٥٠ ، الإرشاد لياقوت ٦-٥١٨-٥٢٢ ، مطمح الأنفس للفتح ابن خاقان ٥٣-٥٥ ، الوافي
بالوفيات للصفدي ٢-٣٥١ ، بغية الوعاة ٣٤ ، نفح الطيب للمقري ٥-٢٤ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٦٦-٦ ،
الديباج لابن فرحون ٢٦٣ ، شذرات الذهب لابن العماد ٣-٩٤ ، روضات الجنات للخونساري ٦٨٥-٦٨٦ ،
معجم المطبوعات ٩٦١-٩٦٢ .

(٤١) نفح الطيب ٥-٢٤ .
(٤٢) من تلامذة ثعلب وابن قتيبة والمبرد . وانظر جذوة المقتبس ٣١١-٣١٤ ، تاريخ الفكر الاندلسي ٣٩٤ .
(٤٣) جذوة المقتبس ٢١٥-٢١٦ .
(٤٤) جذوة المقتبس ١١٧ .
(٤٥) البغية ١٩٨ ، الانباه ١-٢٠٤ ، الأنساب ٤٣٩ ب ، بغية الملتبس ٢١٦ ابن الفرضي ١-٥٦ ، الشذرات
١٨-٣ ، طبقات الزبيدي ١٢٠ .

وقدّر مكانته في العلم ، فمال إليه واختصّ به ، واستفاد منه وأقرّ له (٤٦) ، ونوّه بكتبه (٤٧) فزادت - بتواضع الزبيدي - نبأه وعلا ذكره .

واختاره الحكم المستنصر مؤدّباً لولده ووليّ عهده هشام ، فعلمه الحساب والعربية ، ثم وليّ قضاء إشبيلية وخطّة الشرطة بها (٤٨) .

وظلّ موضع الرعاية والتبجيل إلى أن توفي بقرطبة سنة ٣٧٩ هـ .

وعناية الزبيدي بكتاب « العين » تتجلى في عدة أوجه ، فقد عني بتصحيح متنه ، واختصره ، ودّرّسه درساً نقدياً رائعاً انتهى به إلى الاقتناع بعدم صحة نسبته إلى الخليل ، ثم ... استدرّك عليه .

وكانّ الزبيدي أحسنّ أن عليه - قبل أن يصدر أيّ حكم على كتاب العين - أن يتأكد من صحة النص الذي سيّتحّذه موضوعاً للدراسة والنقد .

ومن هنا عني بقراءته وتصحيحه في نسختين موثقتين :

إحداهما : نسخة القاضي منذر بن سعيد البلوطي التي مرّ الحديث عنها .

والثانية : نسخة قاسم بن ثابت التي انتسخت بمكة (٤٩) .

وهي بداية ، حين تدلّ في وضوح على مدى تمثّل الزبيدي لمنهج البحث بين علماء المسلمين ، من شأنها أيضاً أن تُحدّد له معالم سيره .

وعلى ضوء ما أنتجته له قراءته المقارّنة النقدية لكتاب « العين » سارّ في درسه .

مختصر العين :

اختصر الزبيدي كتاب « العين » مرتين ، إحداهما تمثلها :

أ - النسخة الكبرى :

وكانت - فيما يظهر - تشتمل على الشواهد اللغوية ، من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وأبيات شعرية (٥٠) ، كما كانت تحتوي على الاعتراضات مفرقة في الكتاب ، كلّ اعتراض منها بجذاء مادته يعقبها ، ثم جرّدها الزبيدي بعد ذلك في كتاب مستقلّ سّماه : « الاستدراك على كتاب العين » ، والحديث عنه يأتي ، ولم يحذف الزبيدي من الأصل إلا « الشواهد المختلقة » ، والحروف المصحّفة ، والابنية المختلّة » (٥١) .

(٤٦) نفح الطيب ٤-٧٤ ، ٧-٢٠ . (٤٧) الارشاد ٧-٢٩ . (٤٨) نفح الطيب ٥-١٥٢ .

(٤٩) المزهر ١-٨٣-٨٤ . (٥٠) المزهر ١-٨٨ . (٥١) المزهر ١-٨٧ .

والحواشي التي تحتفظ بها نسخة جامعة القرويين ، تدلنا على طبيعة هذه النسخة الكبرى من هذا المختصر ، وفي الحديث عن مميزات نسخة جامع القرويين ، بقية بيان لخصائص النسخة الكبرى .

وهناك في آخر نسخة القرويين فصلٌ يتضمن عدد الكلمات المستعملة والمهملة من كلام العرب ، وهو فصلٌ نُقِلَ - فيما نُقدِّر - من النسخة الكبرى هذه ، وفي كلام التادلي الآتي عن « الوشاح » (٥٢) ما يشهد لما ارتأيناه ، وقد نقل هذا الفصل السيوطي في المزهَر (٥٣) .

وقد رأى هذه النسخة الكبرى أبو زيد عبد الرحمان بن عبد العزيز التادلي ثم المدني ، وتحدث عنها في مقدمة كتابه : « الوشاح وتثقيف الرِّماح » ، في ردِّ توهيم المجدي الصِّحاح حيث قال : « قلت : وجمعني الله أيضاً على نسخة من مختصر العين للامام القاضي أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، قال كاتبها بعد خطبة المؤلف : وقفت على هذه الخطبة بخط القاضي الرشيد رَحِمَهُ الله في آخر النسخة الكبرى من مختصر العين التي اختصرها للمستنصر بالله ، وذكر فيها عدد المستعمل والمهمل من كلام العرب ؛ وحذف ذلك من النسخة التي بأيدي العامة (٥٤) . ثم ذكر التادلي خطبة « مختصر العين » المعروف الموجود بأيدي الناس ؛ وكان الحكم المستنصر استطال النسخة الكبرى من هذا المختصر ، فأشار ، مرة « ثانية » ، على الزبيدي بتعديل خطته في الاختصار .

ب - النسخة الصغرى :

وقد أوضح الزبيدي في دياجة المختصر الصغير أن أمرَ الحكم المستنصر كان يهدف إلى : « أن تؤخذ عيونه (كتاب العين) ، ويلخص حسَّوه ، وتُسقط فضول الكلام المتكررة فيه ، لتقرب بذلك قارئه ويسهل حفظه ، ويخفف على الطالب جمعه .

فابتدأنا في ذلك بعون الله وتأييده على الشريعة المذكورة ، ومذهبنا أن نُصلح ما ألفيناه مختلفاً في الكتاب ، وأن نوقع كل شيءٍ منه مواقعَه ونضعه في بابِه . (٥٥) وقد لقبي هذا المختصر من الإقبال عليه ما جعل العلماء يلهجون بمدحه (٥٦)

(٥٢) الوشاح (طبع بولاق سنة ١٢٨١ هـ) ص ١٠ .

(٥٥) مختصر العين ص ٢ .

(٥٤) الوشاح ص ١٠ .

(٥٣) ٧٦-٧٥-١ .

(٥٦) المزهَر ٨٧-١ ، نفح الطيب ٢٤-٥ .

ويتنافسون في الحصول عليه ، (٥٧) ويروونه (٥٨) وينسخونه (٥٩) ويفضّلونه على سائر ما ألف على حروف المعجم من كتب اللغة ، مثل الجُمهرة وكتب كُرَاع . (٦٠) بل ذهب إعجابهم به إلى أن فضّلوه على أصله « العين » ، حيث وضعوه في مقدّمة المختصرات الأربعة التي كانوا يروّنها فضلت على أصولها (٦١) . وجعلوا مصدرَ هذا الفضل أن الزبيديّ حذف ما أورده مؤلف كتاب العين من الشواهد . (٦٢)

على أن هناك مَنْ جعل صنيعَ الزبيديّ هذا تقيصةً وُصم بها كتابه ، كان أبو الحسن الشّاري يقول : « ومذهبي ومذهبُ شَيْخِي أَبِي ذَرِّ الحُشَيّ وَأَبِي الحَسَنِ ابنِ خُرُوف أن الزبيديّ أَخْلَلَ بكتابِ العينِ كثيراً ، لحذفه شواهدَ القرآن والحديث وصحيحَ أشعار العرب منه . » (٦٣)

ومن هنا قام أبو غالب تَمّام بن غالب المُرسيّ اللغوي المعروف بابن التّياني (المتوفى سنة ٤٣٦ هـ) بتأليف كتابه العَظِيم الذي سَمّاه « الموعِب » وأتى فيه بما في كتاب « العين » من صحيح اللغة — الذي لا اختلاف فيه — على وجهه ، دون إخلالٍ بشيء من الشواهد الصحيحة . (٦٤)

ومن الخطأ قولُ القنّوجي في كتابه « البلغة » : « وصنّف أبو غالب تَمّام ابن غالب التّياني كتاباً متعلقاً به (بكتاب العين) سَمّاه « فتح العين » ... واختصره أي فتح العين محمد بن حسن الزبيدي وهذّبه ، واشتهر بمختصر العين ، وفضّلوه على أصله . (٦٥) فهو كلام يحمِلُ تكذيبه في ثنّايه ، فما معنى كونه « مختصر العين » إذا كان تهديباً واختصاراً لفتح العين ؟ ثم هل عادَ الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ إلى الحياة مرةً أخرى ليختصر كتاب ابن التّياني المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ؟

ونقل القنّوجي في البلغة عن أبي نصر الهُوريني قوله : « لما قدحوا في مختصر العين بأنّه أَخْلَلَ بكتاب العين ، لحذفه الشواهد النّافعة ، صنّف أبو علي القالي كتابه « البارِع » ، أتى فيه بما في العين وزادَ عليه » (٦٦) .

ولم يُعقّب على هذا الكلام بشيءٍ ، فكأنه مسلّم مقبول عنده . وهو كلام فاسد لا يستند إلى معرفة ، فكتاب « البارِع » ، انتهى القالي من تأليفه سنة ٣٥٥ هـ (٦٧) ، ومختصر العين للزبيدي ، بدأ فيه ، وانتهى منه في سنة ٣٦٢ هـ (٦٨) .

-
- (٥٧) الارشاد ١٨-١٨١ (طبع الحلبي) . (٥٨) فهرس ابن خير ٣٥٠ . (٥٩) الصلة لابن بشكوال ٦٥-١ . (٦٠) المزهري ٨٧-١ . (٦١) المزهري ٨٧-١ . (٦٢) المزهري ٨٨-١ ، البلغة ٨٤ . (٦٣) المزهري ٨٨-١ ، البلغة ٨٤ . (٦٤) المزهري ٨٨-١ ، ابن خير ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ . (٦٥) البلغة ١٢٧ . (٦٦) البلغة ٨٤ . (٦٧) فهرس ابن خير ٣٥٤-٣٥٥ . (٦٨) خاتمة نسخة جامع القرويين ٣٣٥ .

نقد الزبيدي لكتاب العين :

على الرغم من كثرة ما لحق كتاب « العين » في الشرق من النقد والتمحيص ، فإن علماء اللغة بالأندلس — لما وقّر في نفوسهم من التجلّة والإكبار للخليل — أكبروا أن يُمسّ كتابُ « العين » بالنقد والتجريح ، فأذكروا قولَ الزبيدي في نقد هذا الكتاب ، وبالعوا في التحامل والتشنيع عليه بين الحشوية والدّهماء (٦٩) .

فكتاب « العين » كان في نظرهم جميعاً — ما عدا الزبيدي — من تأليف الخليل ابن أحمد ، علّى هذا الأساس نقله من الشرق إلى الأندلس لأوّل مرة ثابت بن عبد العزيز وابنه قاسم بن ثابت (٧٠) ، وعلى هذا الأساس روّوه بأسانيدهم إلى الخليل (٧١) ، وعلى هذا الأساس مرة ثالثة حدّأ حدّوه من ألف بعدد في اللغة منهم على نظام الخليل . وهكذا أظلت بينهم جلالَةُ الخليل وعلمُهُ كتابَ « العين » ، فنفروا من ناقدِهِ ، ونقموا منه أن لا يشرّكهم في تقدير الخليل .

ولم يشدّ أبو بكر الزبيدي عن علماء بلده في إجلال الخليل وتقديره ، ولكنه كان يرى — وهذا موطنٌ ينفرد به عنهم — أن الكتاب بصورته التي وصلَ عليها إليه — ليس من صنع الخليل (٧٢) ، وأن نقده للكتاب — بعد استبعاد أن يكون الخليل مؤلفه — لا يعني أنه ينقد الخليل أو ينتقصه فضله وعلمه ومكانته ، بل هذا النقد يعني — على العكس من هذا — تبرئته ، ورفع منزلته العلمية عن أن يُنسب إليه ما في كتاب العين من الخلل . (٧٢) وقد استفاد الزبيدي من قول أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب : « إن الخليل رسم الكتاب ولم يحشّه ، ولو أنه حشاه ما بقى منه شيئاً ... وقد حشّا الكتاب قوم علماء ، إلا أنه لم يؤخذ عنهم رواية » ، إنما وجد بنقل الوراقين « (٧٣) .

وهو قولٌ واضحة دلّالته على أن العلماء والوراقين قد زادوا في مسادة الكتاب .

وقراءة الزبيدي لنسختين من كتاب « العين » قراءة نقد ومقايسة ، مع ما رآه بينهما من اختلاف واضطراب ، قد أمدته بعناصر مهمة أيدت له ما ذهب إليه ثعلب ، فارتآه وجدّ في الاستدلال له .

لقد انفرد الزبيدي — فيما نعلم — من بين ناقدَي الكتاب ، بإدخال العنصر

(٦٩) مقدمة الاستدراك (بنقل المزهري ١-٧٩-٨٠) .

(٧٠) طبقات الزبيدي ٣٠٩ ، البنية ٢١٠ ، ٣٧٦ ، الانباه ١-٢٦٢ ، الديباج ١٠٢ .

(٧١) فهرس ابن خير ٣٤٩ ، المزهري ١-٩١ ، تاج العروس ١-١٢ .

(٧٢) مقدمة مختصر العين ص ٢ ، مقدمة الاستدراك (بنقل المزهري ١-٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦) .

(٧٣) مقدمة الاستدراك (بنقل المزهري ١-٨٢) .

التاريخي في الاحتجاج لرأيه ، وهو عنصراً أغفل استغلاله الناقدون للكتاب في الشرق - فيما علمنا أيضاً - .

يقول الزبيدي : إن مؤلف كتاب العين يروي عن أشخاص لا يمكن من الوجهة التاريخية أن يروي عنهم ، لتأخرهم عنه ؛ فقد جاء في الكتاب : « أخبرنا المسعري عن أبي عبيد » ، وأبو عبيد ولد سنة ١٥٤ هـ ، فبناء على أن الخليل توفي سنة ١٧٠ هـ يكون سن أبي عبيد يوم توفي الخليل ١٦ سنة ، وكبير أبو عبيد ، وعلم ، وروى عنه المسعري . ولا يجوز أن يروي مؤلف كتاب العين عن المسعري علم أبي عبيد إلا بعد أن تتعذر عليه الرواية عن أبي عبيد ، بسبب موته ، وأبو عبيد مات سنة ٢٤٤ هـ . ونتيجة لهذا يكون الخليل بن أحمد على فرض أنه المؤلف (المتوفى سنة ١٧٠ هـ) قد روى عن شخص امتدت به الحياة حتى سنة ٢٤٧ هـ (٧٤) .

ونظن أن هذا المثال وحده يكفي للدلالة على أن أيادي تدخلت في مادة كتاب « العين » ، فأفقدت العلماء ثقتهم بنسبته إلى الخليل بن أحمد من جهة ، وهو كذلك دال على دقة المنهج النقدي الذي ينهجه الزبيدي ، ويزن به مادة كتاب « العين » من جهة ثانية .

ثم لاحظ بعد ذلك : أن الكلمات التي استعملت في كتاب « العين » للدلالة على المعاني النحوية الاصطلاحية التي كان النحاة يضعونها ، جاءت فيه على مصطلح المدرسة الكوفية ، وهذا يدل على أن مؤلف كتاب العين كوفي . (٧٥) والخليل أحد أعلام مدرسة البصرة .

إلى هنا ونقد الزبيدي قائم نافذ ، ماس بجوهر الكتاب وليس واقفاً عند « الشكل » كما أراد السيوطي أن يصوره وأن يهون من شأنه . على أنه مما لا ينبغي أن يلحقه الجدال أن التقدم الذي أحرزته الدراسات اللغوية ، وخاصةً مباحث التصريف والاشتقاق قد أضعف من قيمة النقد الذي يتعلق بالمزيد والأصيل من الكلمات ، وبمكان الثلاثي والرباعي ، وما أشبه هذا مما يؤثر في ترتيب الكتاب . ومع هذا فإن هذا النقد دليل على مدى اطلاع الزبيدي على متن اللغة واستقصائه ، وعلى فهمه وتضلعه في فهم النحو والصرف وما ليهما من علوم اللغة .

استدراك الزبيدي على كتاب العين :

وهذا مظهر آخر من مظاهر عناية أبي بكر الزبيدي بكتاب العين . فقد أُلّف

(٧٤) مقدمة الاستدراك (بنقل المزهري ١-٨٣) .

(٧٥) مقدمة الاستدراك (بنقل المزهري ١-٨٥-٨٦) .

كتاب « المستدرك » في اللغة من الزيادة (التي) في كتاب « البارع » لأبي علي القالي البغدادي على كتاب العين للخليل بن أحمد ، ذكره ابن خير الإشبيلي في فهرسته (٧٦) ، وفي مكتبة جامع القرويين تحت رقم ٦٤ كتاب عنوانه : « المستدرك في اللغة على مختصر العين ، وما لم يقع في كتابه استدرك هنا ، واستخرج من كتاب البارع ومن كتاب العين » . ومفاد هذا العنوان أن الكتاب عبارة عن مادة لغوية لم يتضمّنها « مختصر العين » ، جُمعت على حدة ، ونُقلت من كتابي « البارع » للقالي ، وكتاب « العين » نفسه ، ولم يُسمَّ مؤلف هذا المستدرك على ظهر الكتاب (٧٧) .

غير أنه جاء في ديباجته ما يلي : « المستدرك في اللغة أمر يجمعه وتأليفه الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين ... عبده محمد بن الحسن الزبيدي ، فاستخرجه من كتاب أبي علي إسماعيل (بن القاسم) البغدادي ، الموسوم بكتاب « البارع » ، وضمّن هذا الكتاب الزيادة التي في كتاب البارع مما لم يقع في كتاب « العين » خاصة ، ووعد أبو بكر الزبيدي في صدر هذا الكتاب أن يُحسّن الاختصار فلم يفّ بما وعد ، بل كرّر وطوّّل ، حتّى صار الكتاب أكبر من كتاب الخليل ، فدعت الضرورة إلى إعادة اختصاره ثانية وتحديد ألفاظه الزائدة في الأصل الكتاب ، وليؤقف على ما أغفله الخليل بغاية الإيجاز ، وليخفّ نسخته وحمّله على الباحث عنه ، إن شاء الله » (٧٨) .

وهذا الكلام صريح في أمرين :

- أ — أن الزبيدي استدرك فيه على كتاب « العين » نفسه .
 ب — أن نسخة القرويين التي بين أيدينا ليست « مستدرك » الزبيدي ، ولكنها مختصر منه ، ولم نستطع أن نعرف مؤلف هذا المختصر .
 وبناءً على هذا فإن عنوان نسخة القرويين الذي كُتب على ظهر هذا المختصر بخط غير خط الكتاب ، والذي نصه :

« المستدرك في اللغة على مختصر العين ، وما لم يقع في كتابه استدرك هنا واستخرج من كتاب البارع ومن كتاب العين » نقول : هذا العنوان خطأ ، لأنه لا يطابق ما بداخل الكتاب حسبما دلّت عليه الديباجة التي نقلنا نصها .

ولقد حافظ هذا المختصر على صيغ تعقيبات الزبيدي وملاحظاته على كلام صاحب العين ، وكلام القالي في البارع ، فأوردها من غير أن يتصرّف فيها ، وجاءت دائماً : مصدرة بعبارة : « قال محمد » ، وأضاف إلى هذه التعقيبات أحياناً ملاحظته الخاصة ،

(٧٦) ابن خير ٣٥٠ .

(٧٧) ذكره السيوطي في المزهري ٨٣-١ ولم يسم مؤلفه .

(٧٨) صحيفة ١٧-٢٠١ .

ولنذكر على سبيل المثال قوله : (٧٩) « قال محمد : ذكر اسماعيل في هذا الباب كلمة اخترعها المولدون وليست تصحّ عن العرب » ، وعلق عليها هذا المختصر بقوله : « ولم يذكر محمد ما هذه الكلمة » .

وقد تبّع الزبيدي في « المستدرك » ترتيب « العين » مع اعترافه بعدم صحة ترتيبه .

مؤلفات الزبيدي :

رأينا أن نتم القول على مؤلفاته ، فالحديث عنها ينير كلّ جوانب الزبيدي الثقافية ونشاطه فيها ، لقد ألف الزبيدي :

١ - كتاب الواضح في النحو ، وصفه ابن خلكان بأنه مفيد جداً ، وشرح منه النصف الأول عبد الله بن محمد بن عيسى الأسلمي الأندلسي (٨٠) وفي دار الكتب المصرية من كتاب الواضح نسخة مصورة عن مكتبة الجامع المقدس بصنعاء (٨١) .

٢ - أبنية الأسماء والأفعال ، (٨٢) ويقال له : أبنية سيبويه ، وهو كتاب الاستدراك على ما أهمله سيبويه في باب الأبنية والزيادات من كتابه . وقد نُشر في روما سنة ١٨٩٠ م .

٣ - رسالة التقريظ ، ذكرها ابن خيّر الاشبيلي في فهرس مروياته ، (٨٣) ولم نتبين حقيقة الأمر فيها .

٤ - هتك ستور الملحدين ، وهو رسالة في الرد على ابن مسرة وأهل مقالته . ذكره ابن بشكوال في الصلة ، (٨٤) وابن خلكان والسيوطي في البغية ، وابن فرحون في الديباج ، وحاجي خليفة في كشف الظنون .

٥ - رسالة الانتصار للخليل فيما ردّ عليه في « العين » . ذكرها القفطي في الأنباه (٣-١٠٩) ، وموقف الزبيدي من كتاب العين يجعل من الصعب علينا قبول نسبة هذه الرسالة إليه ، إذ كيف يدافع عن الخليل - الذي لا يعترف بأنه مؤلف كتاب العين - في كتاب لا يرى صحة نسبته إليه .

لقد التزم الزبيدي نتيجةً لرأيه هذا أن لا يحكي حرفاً عن الخليل ، ولا ينسب

(٧٩) الورقة ٣٤ ، س ١٢ ، ٣٦ س ٦ .

(٨٠) الصلة لابن بشكوال ٢٥٣ .

(٨١) تقرير الدكتور خليل نامي عن البعثة المصرية لتصوير المخطوطات باليمن ص ١٣ .

(٨٢) ذكره الزبيدي بهذا الاسم في طبقات النحويين ٢٣٩ .

(٨٣) صحيفة ٣٥١ . (٨٤) صحيفة ٤٧٢ .

إليه ما وقع في كتاب العين فعَل هذا ، كما يقول « توحياً للحق وقصداً إلى الصدق » (٨٥) .

ويقول أبو الفضل إبراهيم في حاشية له على « إنباه الرواة » (٨٦) : « هو جزء من كتاب مختصر العين ، وسماه السيوطي في (المزهري ٥ : ٧٩) (كذا) : « استدراك الغلط الواقع في كتاب العين ، ونقل جزءاً منه وعلّق عليه » . وهذا كلامٌ فيه من الخطأ ما لا يحتمله عددُ كلماته .

أ : فمختصر « العين » ، وكتاب الاستدراك ، كتابان لكل واحدٍ منهما كيانه وموضوعه المتميز به عن الآخر .

ب : ومختصر العين بيدنا ، وليس فيه شيء من هذا الانتصار للخليل الذي تتضمنه هذه الرسالة حسبما يفهم من عنوانها .

ج : وكتاب الاستدراك — والأمثلة التي نقلها السيوطي في المزهري شاهدة — اعتراض على الخليل وليس انتصاراً له .

فإذا ما صح أن الزبيدي كلاماً ينتصر فيه للخليل ، ومن البعيد بعد الذي تقدم ، أنه يصح ، فانه ينبغي أن يكون هذا الكلام شيئاً آخر .

ونحن نميل إلى أن يكون القسم الذي يُبين فيه الزبيدي مكانة الخليل العلمية ، والذي أثنى عليه (٨٧) فيه في مقدمة كتاب « الاستدراك » ، قد اقتطع منها وسمي انتصاراً للخليل .

غير أن الزبيدي هنالك كان يهدف إلى تنزيه الخليل ، وهو في العلم والذكاء بالمنزلة التي بيننا ، عن أن يقع في الأخطاء التي في كتاب « العين » ، ولم يحاول مطلقاً أن يلتبس لهذه الأخطاء مسلكاً من المسالك .

٦ — كتاب لحن العامة ، ويقال : لحن العوام ، ويقول ياقوت في الإرشاد : إنه فيما يلحن فيه عامة الأندلس . ومنه نسخة في مكتبة الاسكوريال ، وأخرى بمكتبة رئيس الكتاب باستانبول .

وفهم من كلام ابن خيّر الاشيلي (٨٨) أن « لحن العامة » هذا له نسختان : أولى وثانية .

٧ — مختصر لحن العامة ، ذكره ابن خيّر ، وقال إنه « في جزء واحد » (٨٩) .

٨ — طبقات النحويين ، ويقال : « أخبار النحويين » . ومنه نسخة في مكتبة نور عثمانية باستانبول ، وعن طبع في القاهرة بعناية الأستاذ « أبو الفضل إبراهيم »

(٨٥) المزهري ١-٨٥-٨٦ .

(٨٦) ٣-١٠٩ .

(٨٩) صحيفة ٥٢٠ .

(٨٨) صحيفة ٥٢٠ .

(٨٧) نقلها السيوطي في المزهري ١-٨٥-٨٦ .

سنة ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م.

وهناك نسخةٌ مختصرةٌ من طبقات النحويين طُبعت بروما سنة ١٩١٩ م. باعتناء Fritzkrinkow على أنها للزبيدي ، ونحن لا ندري أي من عمل الزبيدي ، أم أن شخصاً آخر هو الذي اختصرها من النسخة السابقة ، فالمصادر لا تذكر أن الزبيدي اختصر كتابه .

٩ - المستدرك على كتاب العين ، وقد تقدم الحديث عنه .

١٠ - الاستدراك على كتاب العين ، ويقال : استدراك الغلط الواقع في كتاب العين ، وسماه ابن فرحون في الديباج : « غلط العين » ، وهو مجلدةٌ جمع فيها الزبيدي الأخطاء والتصحيقات التي وقعت في كتاب العين ، وقد لخصه السيوطي في المزهَر ، فذكر مقدمته (٩٠) ، وخلاصة الاعتراضات التي وجهها الزبيدي إلى كتاب العين (٩١) . وقد أخطأ مرتضى الزبيدي في كتابه تاج العروس (٩٢) حيث قال : « وقد ألف أبو بكر الزبيدي كتاباً سماه « مختصر العين » استدرك فيه الغلط الواقع في كتاب العين وهو مجلد لطيف » ، فجعل مختصر العين ، وكتاب الاستدراك كتاباً واحداً .

ومنشأ هذا الخطأ أنه أساء اختصار كلام السيوطي في المزهَر (٩٣) . وتبعه على خطأه هذا صديق بن علي القنوجي في كتاب البلغة في أصول اللغة (٩٤) ، وحاجي خليفة في كشف الظنون (٩٥) ، وعلي عبد الواحد وافي في كتابه « فقه اللغة » (٩٦) .

ويقول أبو الفضل إبراهيم في مقدمة « طبقات النحويين للزبيدي » (٩٧) ، وفي حاشية له على « إنباه الرواة » (٩٨) : إنه نشر في روما سنة ١٨٩٠ م. بتحقيق Guidi

وهو خطأ منشأه الخلط بين كتاب « الاستدراك » على كتاب سيبويه ، وهو كتاب الأبنية الذي قدمنا الحديث عنه (رقم ٢) ، وبين كتاب « الاستدراك » على كتاب « العين » ، الذي هو موضوع حديثنا هنا .

(٩٠) المزهَر ١-٧٩-٨٦ .

(٩١) المزهَر ٢-٣٨١-٣٩٠ .

(٩٢) تاج العروس ١-١٢ .

(٩٣) ١-٧٩ .

(٩٤) ص ٨٢ .

(٩٥) ص ١٤٤٢ .

(٩٦) صحيفة ٢٧٩ ، وقال في الحاشية هنا : إن مختصر العين بدأ بطبعه في العراق قبل الحرب العالمية الأولى . وهو خطأ آخر ، والذي شرع في طبعه في العراق هو كتاب العين لا مختصره .

(٩٧) صحيفة ٥ .

(٩٨) ٣-١٠٨ .

١١ - مختصر العين (وقد تقدم القول فيه) .



وقد اعتمدنا في اخراجنا لهذا الكتاب ، على نسختين منه ، أما احدهما وهي التي اشير اليها بحرف « أ » فهي محفوظة بمكتبة جامع القرويين ، وهي مكتوبة على رق الغزال بخط أندلسي غاية في الدقة والضبط ، وتقع في ٣٣٥ صحيفة ، وقد جاء في صحيفة ٣٣٣ منها ما نصه :

« ألفت في آخر كتاب الأستاذ أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي - رضي الله عنه - بخط أخيه رحمة الله عليه : ألفت في آخر كتاب الحكم المستنصر بالله رضي الله عنه بخط أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي رحمة الله عليه :

بدأت بتأليف هذا الديوان في ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ وكمل عمله ونسخه مرة ، ونقله ثانية في شوال في التاريخ المذكور ، وتولّى نسخ الديوان عبدُ أمير المؤمنين أبقاه الله الفتحُ بنُ عمر بن مطر الإشبيلي .
وهي كلمة تدل على ما يلي :

١ - أنها نقلت من نسخة ابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ هـ ، وفي حياته ، حيث أنها كمل نسخها سنة ٥١٨ هـ .

٢ - ان نسخة ابن السيد لها صلة بنسخة الحكم المستنصر التي قرأها الزبيدي وسجل بخطه تاريخ بدايته تأليفها وتاريخ انتهائه منها .

وفي صحيفة ٣٣٣ منها تحدّد صلتها بنسخة الحكم وصلة نسختنا بنسخة ابن السيد بالعبارة التالية « ألفت في كتاب الشيخ ابن السيد البطليوسي الذي قابلت به كتابي هذا : بلغت المقابلة بكتاب الحكم رحمه الله الذي قابله الزبيدي وفيه خطه وتصحيحه » .

وإلى هذا فالخواشي التي تمتاز بها نسخة القرويين هذه صريحة في أن ابن السيد كان ينقل من نسخة الحكم هذه التي عليها تصحيح الزبيدي نفسه .

وعلى الرغم من قول الناسخ :

« تم مختصر العين من النسخة الكبرى » ، فان الخواشي والشروح التي تزددان بها نسخة القرويين تدلّ على أن النسخة التي بين أيدينا ليست هي الكبرى .
على انه قد أدخل في متنها كلمات وجمل من النسخة الكبرى ، وقد حُصرت غالباً هذه الإضافات بين قوسين ، وكتب فوقها حرف « ك » ، إشارة إلى النسخة الكبرى ، كما أن كثيراً من الخواشي نُقل عنها أيضاً فصُدّرت بحرف « ك » .

وفي بعض الأحيان نجد فوق المتن كلمة « لا » النافية أو « لا ص » ، وهي جميعها تعني أن النص المعلم عليه بها لا يوجد في النسخة الصغرى من مختصر العين .
أما الحواشي فهي إما من كلام الزبيدي في النسخة الكبرى وإما من كلام أبي علي القالي ، نقلها الزبيدي ، أو البطليوسي عنه .

وأما النسخة الثانية :

وقد أشرنا إليها بحرف « ب » فهي ملك خاص لسيدى علال الفاسي ، وقد كتبها محمد بن سعيد بن ايعزى بن أحمد التاملي سنة ٩٧٠ هـ .
وهي بخط مغربي واضح مشكول بالحركات شكلاً تاماً ، وفيها بعض تحريف ، وتنقص بضعة أوراق من وسطها .



أما الاصطلاحات والرموز التي كتبت في الحواشي :

أ	فقد أشرنا إلى نسخة القرويين بحرف
ب	ونسخة الاستاذ علال الفاسي بحرف
م	والمحكم لابن سيده بحرف
ل	ولسان العرب بحرف
ت	وتاج العرس بحرف

واتبعت في تنظيم الفروق بين هذه المراجع الطريق التالية :

- ١ - ثبت القراءة التي رجحت على غيرها مع الإشارة إلى مصدرها .
- ٢ - ثم نتبعها بالقراءة المرجوحة مع الإشارة إلى مصدرها أيضاً .
- ٣ - أما الحواشي التي كتبها ابن السيد البطليوسي بحاشية « أ » ، فقد أثبتت وصدرت بعبارة « حاشية أ » . وما نُقل عن المصادر المذكورة أعلاه أشير إليه برمز المصدر .
هذا وأنا لنرجو أن نكون قد وفقنا في عملنا هذا أو قاربنا . والله الكريم يهدينا
لتي هي أقوم .

الرباط ٢٨-١-١٩٦٣ م

محمد بن تاويت الطنجي

علال الفاسي